

البيئة الفكرية والعنف السياسي في المجتمع العربي

لا نستطيع أن نستعرض كافة جوانب الفكر السياسي في هذه الدراسة ولكننا سنقتصر على رصد أهم الخصائص التي يتسم بها الفكر السياسي الغربي في حياتنا المعاصرة، ولعلها تشكل مجتمعة البيئة الفكرية العربية، وبالتالي ستكون هذه البيئة مدعاة لإبراز العنف السياسي كأداة ممارسة سياسية في المجتمع العربي.

وأول خاصة يمكن ذكرها في هذا السياق السياسي العربي هي أنه ليس فكراً متسقاً متجانساً موحداً، بل هو فكر متنوع الاتجاهات متعدد المشارب، مختلف المناهج والأهداف منقسم كل الانقسام، وكأنه لهذه الحياة تعبير عن واقع التنوع والتعدد والاختلاف والانقسام السائد في الخريطة السياسية الاجتماعية الثقافية العربية⁽¹⁾.

وهذا معناه أن الفكر السياسي العربي لم يستطع أن ينتج إلى اليوم نظرية سياسية، أي نظام مفهومي يتمتع بقدر من التماسك والاستقرار الدلالي النظري⁽²⁾.

هذا النظام الذي يمكن استخدامه في تحليل واقع المجتمع العربي هذا الغياب أوجد الفوضى الفكرية في المجتمع العربي المعاصر، ويبدو بشكل واضح في غياب المشروع العربي الحضري الذي يمكن أن تلتفّ حوله كل الشعوب العربية.

والخاصية الثانية: تتمثل في أن الفكر العربي يشغل على نصوص لا على الواقع المعاشي⁽³⁾، فالملاحظ أنه ليست هناك علاقة مباشرة بين الفكر السياسي العربي والواقع القائم، وهذا الأمر عائق عن التحليل وتقديم الحلول العملية لمواجهة المشاكل فما زال

الفكر العربي يكرر معالجة نفس القضايا ويدور في فلك نفس المفاهيم ويحوم بالرغم من الاختلافات الجزئية حول نفس الحلول⁽⁴⁾.

أما الخاصية الثالثة: فيعبر عنها الجابري بقوله: إن الخطاب العربي المعاصر في جميع أصنافه هو خطاب من أجل النهضة ومع ذلك فإنه قد فشل في أن يقدم للنهضة المنشودة النظرية التي يمكن أن تمثدي بها لوضعها موضع التحقيق⁽⁵⁾.

فالخطاب النهضوي لا يتناول النهضة بوصفها واقعا قائما، ولكن بوصفها واقعا مأمولا هو خطاب الممكنات، فمقاهيم هذا الخطاب لا تشير إلى واقع متحقق، ولكن إلى واقع مأمول تحقيقه⁽⁶⁾.

وأما الخاصية الرابعة: فهي سيادة الترعة التوفيقية بين العنصر العربي الحديث والعنصر الإسلامي العربي التقليدي⁽⁷⁾.

ولقد نتج عن هذا تناقض داخلي في مقومات الفكر العربي وبين مضامينه الإيديولوجية وصياغاته المعرفية التي تتسم بالضعف الشديد⁽⁸⁾.

ضمن هذا السياق يرى برهان غليون أن التوفيقية هي إحدى خصائص هذا الفكر وأن آخر المحاولات التوفيقية في الحقبة المعاصرة هي الأفكار الناصرية القومية، وأنه بوصول الناصرية إلى مرحلة الأزمة ظهر تيار إسلامي كاسح وتيار علماني صرف متغرب ومعاد للدين، ونذكر أننا لا نشهد منذ السبعينات إلى تطور هذين التيارين ونمو الصراع بينهما⁽⁹⁾.

والنتيجة اللاحقة لهذا هي تحول البيئة العربية إلى بيئة صراعية.

ونصل إلى الخاصية الخامسة والمتمثلة في (سلفية الفكر السياسي العربي) فهي من جهة قاصرة على السلفية الدينية التي تدعو إلى الرجوع إلى الإسلام الأصولي في صورته الأولى.

ومن جهة أخرى، دعوة بعض المفكرين إلى تبني الغرب وقيمه وأسلوبه من أجل تحقيق النهضة⁽¹⁰⁾.

ونجد الخاصية السادسة متمثلة في تبعية الفكر السياسي العربي للفكر العربي، فالنموذج الرأسمالي الغربي يحاكيه الإسلاميون والعلمانيون فكلاهما يصدر خطابه الذي يدور حول قضية واحدة قضية انحطاطنا وتأخرنا قياساً على الآخر، فهو خطاب إصلاح لأحوالنا ولكنهم يختلفون في تحديد مصادر الإصلاح ونموذجه المرجعي أوروبا أو الإسلام⁽¹¹⁾.

ولعله قد تبين أن الأزمة أزمة ثقافة، أي أن النظام الثقافي القائم والإيديولوجيات والأفكار المختلفة تعبر عن سياسة ثقافية، وعن اختيارات محددة في التنمية الاجتماعية، هذه الثقافة تعكس نمط تطور المجتمع العربي القائم على إعادة النموذج الغربي دون الوصول إليه⁽¹²⁾.

ونجد في الأخير الخاصية المتعلقة بـ(محاولات النخب الحاكمة في الأقطار العربية استخدام الفكر لإحكام سيطرتها على المجتمع والمحافظة على الواقع القائم ويتمثل في تفسيح الروابط الطبيعية وهذا ما أدى إلى شيوع إيديولوجيات كالتائفية والدينية)⁽¹³⁾.

أما السياسات التعليمية والإعلامية فكانت تقوم على أساس تربية الفرد على الرؤية الواحدة، وعبادة الشخص، وعدم قبول أو تقبل الآخرين، بل عدم الاعتراف لهم بهذا الحق.

ونخلص إلى القول بأن الفكر العربي كان بعيداً عن واقعه ويعود هذا إلى الظروف التاريخية والتدخل الأجنبي لهذا نجد عبارة عن هروب إلى الوراء إلى الحلم المأمول، كما يقول الجابري:

كما نجد بفتقد الأدوات الفكرية التي تقوم على الحوار والمجادلة والاعتراف للآخر بحق إبداء الرأي، واحترام الرأي الآخر، والتسامح معه مهما كانت شقة الخلاف.

المواضع:

- ¹ - هشام القروي- أزمة فكر أم أزمة واقع- مجلة الوحدة الرباط- العدد 47/46- يوليو 1988- ص07.
- ² -عبد الإله بلقزيز- مقدمات لتحليل الخطاب السياسي العربي- مجلة المستقبل العربي- بيروت- العدد 123- مايو 1989- ص05
- ³ - محمد عابد الجابري- الخطاب العربي المعاصر- بيروت- دار الطليعة- ط1- 1982- ص33-34.
- ⁴ - عبد الإله بلقزيز- مرجع سبق ذكره- ص05.
- ⁵ - الجابري- الخطاب العربي المعاصر- ص61-67.
- ⁶ - المرجع نفسه- ص127-131.
- ⁷ - محمد جابر الأنصاري- تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي- 1930-1970 سلسلة عالم المعرفة- الكويت- عدد35- نوفمبر 1980- ص7-8-17-20-24.
- ⁸ - الجابري- مرجع سبق ذكره- ص179 وما بعدها.
- ⁹ - برهان غليون- مجتمع النخبة- بيروت- ط1/1986- ص155.
- ¹⁰ - عبد الإله بلقزيز- ص13.
- ¹¹ - المرجع السابق- ص14.
- ¹² - برهان غليون- المرجع السابق- ص56-65!
- ¹³ - نادية رمسيس- آفاق التشكيلات الاجتماعية العربية- مجلة المنار القاهرة- العدد51- مارس 1989- ص60.